



أثر السياق في توجيه المعنى التفسيري

م.م ناهض عبد الله سلمان

ماجستير تفسير علوم قران

مديرية الوقف السني المنطقة الجنوبية

المستخلص:

يعدُّ السياق من الركائز الكبرى في فهم الخطاب القرآني، وتفسير معانيه، وتوجيه دلالاته لذلك كان الهدف من بحثنا المعنون بـ / أثر السياق في توجيه المعنى التفسيري/ تحليل مفهوم السياق، وأنواعه، وأثره في التفسير، دراسة كيفية توظيف السياق في توجيه المعاني التفسيرية للمفردات والتراكيب، بالإضافة إلى بيان أثر السياق الجزئي (سياق الآية والتركيب) وسياق السورة والسياق الكلي في تحديد المعنى. تم في هذا البحث الاعتماد على المنهج الاستقرائي والمنهج التحليلي التفسيري. ونذكر من النتائج التي توصل إليها البحث أن تفسير الآية يجب ألا يقتصر على سياقها القريب فقط، بل ينبغي النظر إلى السياق العام في السورة، وسياقات الموضوع القرآني ككل، مما يعطي رؤية شاملة ودقيقة، وأن السياق يسهم في حفظ وحدة الخطاب القرآني من خلال الحفاظ على وحدة الموضوع في السورة أو المقطع، ويمنع التجزئة في الفهم، مما يعزز القراءة الموضوعية للنص القرآني.

الكلمات المفتاحية: السياق، الخطاب القرآني، المعنى التفسيري.

The effect of context on directing interpretive meaning

A. L. Nahed Abdullah Salman

Master of Interpretation of Qur'an Sciences

Sunni Endowment Directorate, Southern Region

Abstract:

Context is one of the major pillars in understanding the Qur'anic discourse, interpreting its meanings, and directing its connotations. Therefore, the aim of our research entitled / The Effect of Context in Directing the Interpretive Meaning / was to analyze the concept of context, its types, and its effect on interpretation, to study how to employ context in directing the interpretive meanings of vocabulary and structures, in addition to explaining the effect of the partial context (the context of the verse and the structure), the context of the surah, and the overall context in determining meaning. This research relied on the inductive approach and the analytical-interpretive approach. Among the findings of the research, we note that the interpretation of a verse should not be limited to its immediate context alone, but rather should consider the general context of the surah and the contexts of the Quranic topic as a whole, which provides a comprehensive and accurate vision. Context contributes to preserving the unity of the Qur'anic discourse by maintaining the unity of the subject within the surah or section, preventing fragmentation in understanding, and thus enhancing the objective reading of the Qur'anic text.

Keywords: Context, Qur'anic discourse, interpretive meaning.

المقدمة

يعدُّ السياق من الركائز الكبرى في فهم الخطاب القرآني، وتفسير معانيه، وتوجيه دلالاته، إذ تتجلى من خلاله العلاقات النصية والربط الدلالي بين الآيات، ومن ثم فإنَّ له أثراً بالغاً في

تحديد المعنى التفسيري على نحو دقيق ومتزن، فالكلمة أو الآية لا تستقل في معناها من دون الرجوع إلى ما يحيط بها من تراكيب وسباق ولحاق، وسياقات متنوعة. وقد أولى المفسرون قديماً وحديثاً أهمية كبيرة للسياق، لكن توظيفهم له تفاوت في درجة الاعتناء والاعتماد، ويتجلى أثر السياق في تفسير المفردة، وفي تأويل التراكيب، والترجيح بين المعاني الممكنة.

ومن هنا جاء هذا البحث ليعالج هذه الظاهرة في ضوء الأمثلة التطبيقية، ويسعى إلى إبراز دور السياق في ضبط المعنى القرآني، وتوجيهه ضمن قراءة منهجية دقيقة.

أهمية البحث:

- إبراز الدور الرئيس والمهم للسياق في فهم المعنى التفسيري للآيات
- بيان أثر السياق في حل الإشكالات التفسيرية، والترجيح بين المعاني المحتملة.
- الإسهام في تطوير مناهج التفسير من خلال الوعي بأهمية السياق.

أهداف البحث:

- ١- تحليل مفهوم السياق، وأنواعه، وأثره في التفسير.
- ٢- دراسة كيفية توظيف السياق في توجيه المعاني التفسيرية للمفردات والتراكيب.
- ٣- بيان أثر السياق الجزئي (سياق الآية والتركيب) وسياق السورة والسياق الكلي في تحديد المعنى

أسئلة البحث:

- ١- ما مفهوم السياق في الدراسات التفسيرية؟ وما أنواعه؟
- ٢- كيف يسهم السياق في توجيه المعنى التفسيري للمفردات والتراكيب؟
- ٣- ما الفرق بين السياق الجزئي (في الآية والتركيب والسورة) والسياق الكلي؟ وكيف يُوظف كل منهما في التفسير؟

فرضيات البحث:

- ١- السياق عنصر مهم في توجيه المعنى التفسيري للآيات القرآنية.
- ٢- إغفال السياق يؤدي إلى اختلال في فهم المعنى، أو ترجيح غير دقيق.
- ٣- السياق بأنواعه كافة يؤثر في تحديد المعنى المقصود الحقيقي للنص من خلال العلاقة بين هذه الأنواع.

منهج البحث:

يتبع البحث المنهجين الآتيين:

- ١- المنهج الاستقرائي الذي يقوم بجمع بعض الآيات بوصفها نماذج تطبيقية لإظهار وظيفة السياق في تغيير الدلالة وتوضيح المعاني بحسب السياق، بالإضافة إلى استقراء أقوال المفسرين في الآيات ذات الإشكال أو التعدد في المعنى.
- ٢- المنهج التحليلي التفسيري الذي يحلل النصوص ضمن سياقها المباشر، أو ضمن سياق السورة الكاملة أو الموضوع العام.

خطة البحث:

- تمهيد : مفهوم السياق والتفسير
- المبحث الأول: أثر السياق في توضيح معاني المفردات والتراكيب
- المطلب الأول: السياق والألفاظ
- المطلب الثاني: السياق والتركيب
- المبحث الثاني : أنماط السياق في توضيح معاني الآيات
- المطلب الأول: سياق الآية
- المطلب الثاني: سياق السورة
- المطلب الثالث: السياق الكلي

- الخاتمة ونتائج البحث

- تمهيد : مفهوم السياق والتفسير

أولاً: التفسير لغة

ذكر ابن فارس أن الفاء والسين والراء كلمة واحدة تدل على بيان شيء وإيضاحه، ومن ذلك الفسر، يقال فسرت الشيء وفسرته¹، ويقال: فسّر الكلام أي أظهره وأبان معناه، كما يقال فسر عن ذراعه أي كشف عنها، فالتفسير إخراج الشيء من مقام الخفاء إلى مقام التجلي، و"الفسر: البيان، فسّر الشيء يفسّره، بالكسر وبالضم فسراً، وفسّره: أي أبانه، والتفسير مثله، والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل²، والسفر: بياض النهار، وسفر الصبح وأسفر: أضاء³." كما يقال: سفّرت المرأة: كشفت عن وجهها، وهي سافر⁴، وقال أبو حيان أن التفسير في اللغة هو الكشف والاستبانة⁵.

ولذلك قيل إن التفسير كشف المغلق من المراد بلفظه وإطلاق للمحتبس عن الفهم به، ويقال فسرت الشيء أفسره تفسيراً وفسرت أفسره فسراً، والمزيد من الفعلين أكثر في الاستعمال⁶.

ثانياً: التفسير اصطلاحاً

عرف الجرجاني التفسير بأنه في الأصل الكشف والإظهار، أما في الشرع فهو توضيح معنى الآية وشأنها وقصتها والسبب الذي نزلت فيه بلفظ يدل عليه دلالة ظاهرة⁷.

وقد وردت كلمة التفسير في القرآن الكريم مرة واحدة فقط، في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (الفرقان: 33)، فقيل: لا يأتونك بمثل من الجنس الذي تقدم ذكره من الشبهات إلا جئناك بالحق الذي يدفع قولهم، كما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ (الأنبياء: 18)، وبين أن الذي يأتي به أحسن تفسيراً لأجل ما فيه من المزية في البيان والظهور، وقال الطبرسي أن المعنى أنه لا يأتيتك المشركون بمثل يضربونه لك في إبطال أمرك ومخاصمتك إلا جئناك بالحق الذي يبطله ويدحضه، وأحسن تفسيراً أي بأحسن تفسير مما أتوا به من المثل أي بياناً وكشفاً⁸، وذكر الرازي أنه لما كان التفسير هو الكشف عما يدل عليه بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ الكلام وضع موضع معناه، فقالوا: تفسير هذا الكلام⁹.

كثرت التعريفات التي أخذت على عاتقها توضيح معنى التفسير، وهذه التعريفات جميعاً تدل على معنى مشترك وتصب في الدلالة على مطلب واحد، فالتفسير هو علم قائم على التوضيح، وتبيين المعنى المراد من كلام الله عزّ وجل في كتابه الحكيم، الذي يتعلق بالدلالة على معنى الآيات والحديث عن قصتها، والأسباب التي أدت إلى نزولها من خلال دراسة دلالة اللفظ¹⁰.

وقد أشار العلامة الزركشي إلى معنى التفسير ذاكراً بأنه علم يختص بدراسة نزول الآيات الكريمة، والبحث في سورها والقصص التي أشارت إليها، وترتيبها على وفق نزولها إلى مكية

¹ مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، مادة فسر.

² لسان العرب، ابن منظور، مادة (سَفَر): 369

³ ينظر: الصحاح، الجوهري، مادة فسر، لسان العرب، ابن منظور، مادة فسر مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، مادة فسر، وما سوى ذلك من معاجم اللغة والألفاظ.

⁴ المصدر نفسه: 408 / 1.

⁵ البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، 1/ 13.

⁶ البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي: 2/ 47.

⁷ التعريفات، الجرجاني: 50.

⁸ مجمع البيان، الطبرسي: 5/ 106.

⁹ التفسير الكبير، الرازي: 8/ 57.

¹⁰ التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، تح: الأبياري، إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1983م: 1/ 63.

ومدنية، وقد بيّن أن معنى التفسير قائم على الاطلاع على المسائل المتعلقة بما هو محكم ومنشابه، وقضايا التأسخ والمنسوخ، وغيرها من القضايا الأخرى...¹.
ومن التعريفات الأخرى تعريف يختلف عن سابقه وهو: (التفسير علم يبحث فيه عن أحوال القرآن الكريم من حيث دلالاته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية)².

ثانياً: تعريف السياق لغة واصطلاحاً:

أ_ السياق لغة:

قال ابن الأثير - رحمه الله - عن السياق: لفظه سياق هي سواق فقلبت الواو ياء لكثرة السين، وهما مصدران من ساق يسوق³.

وقال ابن فارس - رحمه الله -: السين والواو والقاف أصل واحد، وهو حدو الشيء، يقال ساقه يسوقه سَوْقاً، والسَّيْقَةُ مسيقة من الدواب، ويُقال: سقتُ إلى امرأتي صداقها، وأسقتُهُ، والسُّوق مشتقة من هذا لما يُساق إليها من كل شيء، والجمع أسواق، والساق للإنسان وغيره والجمع سُوق، وإنما سُميت بذلك لأن الإنسان ينساق عليها، وسوق الحرب: حومة القتال⁴. وقال الجوهري: "يُقال ولدتُ فلانة ثلاثة بنين على ساق واحد، أي بعضهم على إثر بعض ليس بينهم جارية، والسياق: نزع الروح، يُقال: رأيت فلاناً يسوق، أي يُنزع عند الموت"⁵ وسُمي النزع شوقاً، لأن الروح كأنها تُساق لتخرج من البدن، وقال ابن منظور إنَّ معنى: ساقَت وتساوقت الإبل تساقواً، إذا تتابعت، وكذلك تقاودت، فهي متقاودة، ومتسوقة، والمساوقة: المتابعة، كأن بعضها يسوق بعضاً، والأصل في تساقق، تتساقق كأنها لضعفها وفرط زالها تتخاذل، ويختلف بعضها عن بعض، وساق إليها الصِّدَاق والمهر سياقاً، وأساقه إذا كان دراهم ودنانير، لأن أصل الصِّدَاق عند العرب: الإبل، وهي التي تساق، فأستعمل ذلك في الدراهم والدنانير وغيرها⁶.

وقال الزمخشري رحمه الله: "ومن المجاز وهو يسوق الحديث أحسن السياق، وإليك يساق الحديث، وهذا الكلام مساقٌ إلى كذا، وجئتُك بالحديث عن سوقة على سرده"⁷، وفي المعجم الوسيط: "سياق الكلام: تتابعه، وأسلوبه الذي يجري عليه"⁸.

ونلاحظ من خلال التعريفات السابقة أنها تدور على معنى التتابع والتوالي والجمع والاتصال والتسلسل، ومنها سياق الكلام من تواليه وتتابعه وتسلسله.

ب_ السياق اصطلاحاً:

لم يظهر تعريف السياق في الاصطلاح عند المتقدمين؛ ذلك أنهم أكدوا على أهميته، وبعض آثاره، واجتهدوا في التوصل إلى سبب عدم تنصيبهم على تعريفه، واختلف بعض الباحثين في تعريف السياق الاصطلاحي ولهم في تعريفه أقوال، ومنها:

1_ إن دلالة السياق القرآني مقصورة على المقال دون الحال، وهو ما يسميه أهل اللغة بالسياق اللغوي، فيعرّف الباحث عبد الحكيم القاسم السياق بأنه: تتابع الكلام وتساققه وتقاوده، ويعرّف دلالة السياق بأنها فهم النص بمراعاة ما قبله وما بعده، وقال إنَّ دلالة السياق في التفسير هي

¹الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تح: إبراهيم، محمد أبو الفضل، دار التراث، القاهرة، مصر، 1984م، ط1: 184/2

²الزرقاني، محمد عبد العظيم مناهل: العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، مصر، ط3،

1943م: 3 2.

³ ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، 2/ 424

⁴معجم مقاييس اللغة، 3/ 117

⁵ الصحاح 4: 1499

⁶ابن منظور: لسان العرب، 7/ 304

⁷أساس البلاغة، 314

⁸الفيروز ابادي، 330

بيان اللفظ أو الجملة في الآية بما لا يخرجها عن السابق واللاحق إلا بدليل صحيح يجب التسليم له¹.

وعرف المثني عبد الفتاح محمود السياق القرآني بأنه: "تتابع المعاني وانتظامها في سلك الألفاظ القرآنية لتبلغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى المقصود دون انقطاع وانفصال"².

أما الباحث أحمد لافي فلاح المطيري فيقول: "إن دلالة السياق القرآني هي بيان الكلمة أو الجملة القرآنية منتظمة مع ما قبلها وما بعدها"³.

2- إنّ الدلالة في السياق القرآني تشمل المقال المتمثل بالسباق واللاحق، وتشمل الحال المقام فتكون دلالة السياق تنقسم الى قسمين : سباق المقال، ويعنون به (السباق واللاحق) و سياق الحال المقام ويعنون به (ما يصاحب النص) من أحوال وعوامل خارجية لها أثر في فهمه كحال المتكلم والمخاطب، والغرض الذي سيق له الى آخره، فيعرف الباحث سعيد محمد الشهراني السياق القرآني بأنه " ما يحيط بالنص من عوامل داخلية أو خارجية لها أثر في فهمه من سابق أو لاحق به أو حال المخاطب، والمخاطب والغرض الذي سيق له، والجو الذي نزل فيه"⁴.

أما الباحث فهد بن شتوي الشتوي فيقول: "السياق هو الغرض الذي تتابع الكلام لأجله مدلولاً عليه بلفظ المتكلم، أو حاله، أو أحوال الكلام، أو المتكلم فيه، أو السامع"⁵.

ويتفق الباحثون على أهمية دلالة الحال، وأنه لا يفهم قول المقام إلا في ضوء معطيات حال المقام، ولكن اختلفوا في دخوله دلالة الحال المقام تحت دلالة السياق، واعتبارها قسيمة للسياق اللغوي، والذي يترجح لدى اقتصار دلالة السياق على المقال، وأن دلالة الحال دلالة مستقلة عن دلالة السياق، وانهما كجناحي طائر في تأدية المعنى، فيتكاملان ويؤديان الدلالة الكاملة والصحيحة للمعنى، وأسباب ترجيح ذلك قصور المدلول اللغوي للجملة سياق الكلام أو سياق القرآن عن تأدية معنى الحال، فالسياق من التابع والانتظام والاتصال، أي أنه تتابع الكلام وانتظامه واتصاله لتأدية المعنى، والسياق القرآني تتابع الكلمات والجمال القرآنية، وانتظامها واتصالها لتأليف المعنى، وهنا يقول الزمخشري: "ومن المجاز وهو يسوق الحديث أحسن سياق إليك يساق الحديث، وهذا الكلام مساق إلى كذا، وجئتك بالحديث على سوقه على سرده، وعرف السرد في موضع آخر بأنه التوالد التابع حيث قال سرد الحديث والقراءة جاء بها على ولاء.

المبحث الأول: أثر السياق في توضيح معاني المفردات والتراكيب

المطلب الأول: السياق والألفاظ

إنّ اختيار الألفاظ في القرآن الكريم تمّ بعناية إلهية فائقة ومعجزة؛ إذ أن وضع اللفة في مكانها يخضع لحكمة إلهية دقيقة، فكل لفظة ظلال دلالية تخدم المعنى المقصود بحسب السياق الذي ترد فيه، وفي ذلك يقول الزركشي: "إن من أعظم الأدوات لفهم القرآن : معرفة السياق، فإنه يوضح المجمل، ويعين على استنباط المعاني الدقيقة"⁶.

وألفاظ كثيرة لا يمكن فصلها عن سياقها، وأمثلة كثيرة تؤكد ذلك، ومنها:

- قال تعالى: (وما كان لنبي أن يغفل)⁷

¹ ينظر: دلالة السياق القرآني وأثرها في التفسير، دراسة نظرية تطبيقية من خلال تفسير ابن جرير، رسالة ماجستير غير مطبوعة، جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية، الرياض، ص 62.

² نظرية السياق، 15.

³ دلالة السياق القرآني في تفسير أضواء البيان للعلامة الشنقيطي، دراسة موضوعية تحليلية، رساله ماجستير غير مطبوعة، الجامعة الأردنية، 14.

⁴ السياق القرآني وأثره في تفسير المدرسة العقلية الحديثة، رسالة دكتوراة غير مطبوعة، جامعة أم القرى، 22.

⁵ دلالة السياق وأثرها في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى عليه السلام، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ص 27.

⁶ البرهان في علوم القرآن، 1/ 281.

⁷ - آل عمران، 161.

إن معنى الآية الظاهري قد يُفهم على أنها نفي للغول عن النبي - صلى الله عليه وسلم- لكن النظر إلى السياق يوضح أن الآيات التي قبلها وبعدها تتحدث عن غزوة أحد، وموقف المسلمين من الغنائم، وهنا يقول الطبري: "أي: ما كان له ظانٌ يخون أصحابه في الغنيمة"¹، كذلك يقول الشنقيطي: "لو اقتطعت الآية عن سياقها، لاحتمل فيها المعنى العام، لكن السياق بيّن أنّ المقصود هو نفي الغول في الغنائم تحديداً"².

ومن ثم فإن معنى (يغل) لا يفهم بدقة إلا من خلال ربطه بسياق الآية من جهة، والآيات السابقة واللاحقة في آن.

- قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمٌ﴾³.

إنّ الاسم الموصول (التي) يحتمل معانٍ عدة؛ إلا أن ربطها بسياق التركيب الذي وردت فيه (التي هي أقوم) يحدد المعنى المقصود، أي الطريقة، أو الديانة أو السيرة، وقد رجّح القرطبي أن المراد بها (الملة الحنيفية) وقال: "ومعنى (التي هي أقوم) أي الطريقة التي هي أسدُّ وأعدل وأصوب، فـ (التي) نعت لموصوف محذوف، أي الطريقة إلى نص أقوم الحالات، وهي توحيد الله، والإيمان برسله"⁴، فمعنى (التي) فهم وعُرف المقصود بها من خلال دلالة ما قبلها، وما بعدها من الآيات.

وللألفاظ أثر في توجيه المعنى التفسيري من خلال دقة اختيارها، وتفاوت معانيها، ومن ذلك

- قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾⁵.

إنّ لفظة (فاعل) تقيد التوكيد، فهي اسم فاعل يفيد التصميم، ولو أستخدم الفعل (سأفعل) بدلاً من (فاعل) لاحتمل معنى التراجع، وقد أشار ابن عاشور إلى ذلك فقال بأن اختيار (فاعل) يؤكد قوة النهي عن الحلف دون الاستثناء، فنظم الآية أن اللام في قوله (لشيء) ليست اللام التي يتعدى بها فعل القول إلى المخاطب، بل هي لام العلة، أي: لا تقولنّ إِنِّي فاعِلٌ كذا لأجل شيءٍ تعدُّ به، فاللام بمنزلة (في) و(شيء) اسم متوغل في التوكيد يفسره المقام، أي الشيء تريد أن تفعله، والإشارة بقوله (ذلك) عائدة إلى (شيء) أي: إِنِّي فاعِلٌ الإخبار بأمر يسألونه، و(غداً) مستعمل في المستقبل مجازاً، وليست كلمة (غداً) مراد بها (اليوم) الذي يلي يومه، ولكنه مستعمل في معنى الزمان المستقبل، كما يُستعمل (اليوم) بمعنى زمان الحال، والأمس بمعنى زمن الماضي، وظاهر الآية اقتصار أعمالها على الإخبار بالعزم على فعل في المستقبل دون ما كان من الكلام إنشاء مثل الإيمان⁶.

أي أننا نجد أنّ لكل لفظة معناها الدقيق، ولكنه لا يفهم من دون ربطه بسياق الآية ومناسبة نزولها.

- قال تعالى: ﴿كَانَ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾⁷.

إنّ لفظة (عشية) و(ضحاه) أنسب للسياق، لأن السورة تتحدث عن الشدة، واليوم الآخر، فناسبت هاتان اللفظتان الموقف، ولو قيل (يوماً أو بعض يوم) لقلّ أثر الرهبة، يقول أبو حيان: "ألفاظ الزمان هنا أريد بها إظهار الفناء والسخرية من استهانة الكافرين بالدنيا"⁸

ومن ثم فإن اختيار اللفظ في الآية ناسب المقام، وأدى المعنى ببلاغة مؤثرة.

- قال تعالى: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا عَسَسَ﴾⁹

1 - تفسير الطبري، 7 / 160

2 - أضواء البيان، 1 / 307

3 - الإسراء، 9

4 - يُنظر: الجامع لأحكام القرآن، 10 / 203

5 - الكهف، 23

6 - التحرير والتنوير، 15 / 255

7 - النازعات، 46

8 - البحر المحيط، 8 / 412

9 - التكويد: 17

لفظ (عسّس) يحتمل الإقبال والإدبار، وقد اختلف المفسرون فيها، لكن السياق الذي يتحدث عن انقلاب الظواهر الكونية رجّح أنها تعني (أقبل وأدبر) أي مطلق الحركة، وقد أكد ابن عطية ذلك فقال: "سياق الآيات من أقسم بالليل والنهار يفيد أن المراد تغيّر الوقت، لا لحظة بعينها"¹. وقال الرازي: "ذكر أهل اللغة أن (عسّس) من الأضداد، يقال: عسّس الليل إذا أقبل، وعسّس إذا أدبر"²، أي أن اللفظ هنا أفاد معنى مرتبط بتقلب الوقت وتغيره، ولا استخدامه إيجاز مطلق يُكثف المعنى، ويقدمه ببلاغة مؤثرة.

- قال تعالى: (ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نَاعِسًا)³

كلمة (نعاساً) تدل على النوم، وقد يُفهم ذلك منها، لكن السياق الذي يسبقها ويلحقها يجعل (النعاس) علامة على الطمأنينة بعد الخوف، وقد قال الرازي: "النعاس المذكور في هذه الآية نعمة عظيمة، إذ نزل بعد شدة التوتر القتالي، فهو أمانة لا مجرد نوم"⁴.

فالمعنى المراد ومقصد الآية مرتبط بالسياق وسبب النزول، ولا يمكن فهمها إلا من خلال ربطهما بهما.

وهكذا نجد أن السياق يضبط معنى اللفظ بدقة ووضوح، ويبين المراد منه، ويقصي ما هو غامض ومحتمل، واستخدام اللفظ القرآني بحكمة إلهية يخدم الغرض البلاغي والدلالي بما يناسب المقام، ومن دون النظر إلى السياق العام والخاص يصعب إدراك معنى الآية الدقيق، وقد أكدت أقوال المفسرين أن فهم السياق واللفظ مفتاح لتفسير القرآن الكريم على الوجه الصحيح.

المطلب الثاني: السياق والتركيب

يحظى السياق والتركيب بأهمية بالغة في فهم النص القرآني، إذ يسهم في توجيه المعنى ويضبطه، ويوضح المقاصد بدقة، فالسياق يمد القارئ بإشارات دلالية تساعد في إدراك المراد، ويسهم التركيب في تحديد العلاقات بين أجزاء الكلام بما يعكس الغرض البلاغي والمعنوي، ومن ثم فإن الجمع بين النظر في السياق والتركيب ضرورة منهجية لفهم النص على نحو سليم وعميق، ولكل تركيب في النص القرآني معناه ودلالته ومقصده، ومن أمثلة هذه التراكيب:

قال تعالى: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)⁵.

إن التقديم والتأخير في هذا التركيب له دلالة خاصة في السياق، فقد قدم المفعول به، وهو هنا الضمير المنفصل (إياك) على الفعل (نعبد) للاهتمام والحرص، أي لا نعبد إلا إياك، وقال الزمخشري: "وفيه إظهار الإخلاص والتوحيد، لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر"⁶. وفي السياق الذي يسبق هذه الآية - وهو الثناء على الله بصفاته - يمهد للدعاء الذي بعدها، مما يجعل التركيب خادماً للغرض الكلي للسورة.

- قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)⁷.

إن التركيب (أنفسكم وأهليكم ناراً) وقع بتقديم (الأنفس) على (الأهل) مما يوحي بأولوية إصلاح النفس أولاً، ثم الأسرة ثانياً، والسياق الأخلاقي التحذيري يدعم هذا الترتيب، أي أن يبدأ الإنسان من نفسه انطلاقاً بالإصلاح إلى غيره، وهنا يقول أبو حيان: "تقديم الانفس إشارة إلى أن صلاح الأهل لا يكون إلا بعد صلاح النفس"⁸.

1 - المحرر الوجيز، 5 / 465

2 - مفاتيح الغيب، 31 / 72

3 - آل عمران، 154

4 - مفاتيح الغيب، 9 / 114

5 - الفاتحة، 5

6 - الكشاف، 1 / 21

7 - التحريم، 6

8 - البحر المحيط، 8 / 375.

كذلك قال السيوطي: "السياق يحكم بين المعاني المختلفة، وهو ضابط مهم في التفسير"¹.

قال تعالى: **(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)**².

إن الجملة من حيث الترتيب اللغوي قد توهم أن (الله) فاعل خشية العلماء، ولكن الترتيب الحقيقي: إن (العلماء) هم الفاعلون، والفعل (يخشى) فعل متعدٍ، و(الله) مفعول به مقدم، و(العلماء) فاعل مؤخر، والتقديم والتأخير هنا مقصود للقصر والتوكيد، ويقول الزمخشري: "قدم المفعول به (الله)، وأخر الفاعل (العلماء)، لأن الغرض هو تخصيص العلماء بالخوف من الله وحدهم لا غيرهم"³.

ويقول ابن عاشور: "سياق التركيب يبين أن المقصود قصر الخشية الحقيقية على العلماء، فكان التركيب أداة بلاغية لإظهار هذا القصر"⁴.

ومن ثم فإن التركيب هنا بتقديم المفعول وتأخير الفعل قد بين أن الخشية لا تكون حقيقته إلا من العلماء ولو بقيت ترتيب على الأصل فهم المعنى على وجه غير مقصود.

- قال تعالى: **(فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ اللَّهُ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ)**⁵.

إن التركيب (ما هذا بشراً) ليس نفيًا باستخدام (ليس) بل نفي بـ (ما) الحجازية التي تدخل على الجملة الإسمية، والجملة على الأصل (ما هذا بشر) ولكن جاءت هنا (بشراً) بالنصب، وهذا النصب على التمييز المحول عن فاعل وتقديره ما هذا شيئاً من جنس البشر وهو ابلغ في النفي وقد قال ابو حيان في نصب بشراً مزيد مبالغة في النفي لان المعنى ما هو من البشر اصلاً لا نفي لكونه بشراً فقط بل نفي للجنس⁶ وقال الزجاج النصب هنا اقوى في النفي من الرفع لان فيه نفيًا للجنس لا نفيًا للخبر فقط⁷.

ومن ثم فإن سياق التركيب في قوله (ما هذا بشر) أفاد المبالغة في التنزيه والتعجب، ويبيّن أن النسوة لم يرين جمالاً بشرياً عادياً، بل شيئاً فوق طاقة البشر، وهذا لا يتضح إلا بفهم التركيب النحوي، والسياق الدلالي.

- قال تعالى: **(سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطَلَعِ الْفَجْرِ)**⁸.

إن التركيب (سلام هي) يثير تساؤلاً نحويًا: ما موقع هي؟ والجملة الأصلية على التقدير (هي سلام)، لكن جاء التقديم لأجل الغرض البلاغي، وهو إبراز مضمون الجملة (سلام هي) في صدر التركيب، والتقديم هنا يفيد أمرين:

أولاً: الاهتمام بحالها، إذ أن طبيعتها السلام، والطمأنينة، والحصر؛ فهي ليست إلا سلام، ويقول الفخر الرازي: "تقديم الخبر (سلام) على المبتدأ (هي) في هذا الموضع لتقوية المعنى وتثبيت أن طبيعة الليلة كلها سكونية"⁹.

وقال الألويسي: "قدم (سلام)، للدلالة على أنها ليلة ليست فيها إلا السلامة، وهو أبلغ في التعبير من (هي سلام)"¹⁰.

1 - الإتيان في علوم القرآن، 2/ 278

2 - فاطر: 28

3 - الكشاف: ج3، 532.

4 - التحرير والتنوير: 11/ 223.

5 - يوسف، 31

6 - البحر المحيط، 5/ 401

7 - معاني القرآن واعرابه، 3/ 249

8 - القدر، 5

9 - مفاتيح الغيب، جزء 32/ 117

10 - روح المعاني جزء 30/ 209

ومن ثم فإن سياق التركيب في هذه الآية بنى المعنى على تقديم الخبر (سلام)، مما أكسب التركيب توكيداً وتعظيماً لحال ليلة القدر، وهو ما يتعذر استخلاصه من التركيب العادي دون النظر في السياق البلاغي.

وهكذا نجد من خلال الأمثلة السابقة أن سياق التركيب في القرآن الكريم له وظيفة دلالية دقيقة تتجاوز الإعراب الظاهر، فهو يعزز المعنى، أو يخصصه، أو يحصره، أو يبرزه، مما يجعل دراسة التركيب في سياقه القرآني ضرورة لفهم الرسالة الإلهية بدقة.

المبحث الثاني : أنماط السياق في توضيح معاني الآيات

المطلب الأول: سياق الآية

يكون النظر في هذا النوع من أنواع السياق في سياق الآية نفسها، دون تجاوز ذلك إلى ما سبقها أو لحقها من آيات، لتحديد واقتناص المعنى المراد لأحد المفردات من خلال معانيها المتعددة والمحملة،

ويعد سياق الآية أقرب مستويات السياق الى اللفظ، إذ يحدده ما قبل الكلمة وما بعدها في الآية نفسها، وغالباً ما تتضح دلالة المفردة أو الجملة حين تُربط بتركيبها البلاغي داخل الآية، ويمكن أن نمثل لذلك بما يأتي:

- قال تعالى: **(فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون)**¹.

قد يظن القارئ إن (المصلين)، مذمومون على الإطلاق، لولا أن سياق الآية، قيّد ذنب المصلين الذين يسهون عن صلاتهم، أي يتكاسلون عنها، أو يؤدونها بلا خشوع، كما قال المفسرون فقد قال ابن كثير: " ليس المراد تركها بالكلية، ولكن السهو عنها، إما بتأخيرها عن وقتها، أو بعدم الخشوع فيها"².

وقال السيوطي : "سياق الآية يخصص المعنى، ويمنع الاطلاق الذي قد يوهمه ظاهر الالفاظ، فلو اقتطع قوله تعالى(فويل للمصلين)من سياق الآية لفهم منه أن الوعيد موجّه إلى عموم المصلين، لكن السياق المباشر في الآية التالية الذين هم عن صلاتهم ساهون يرفع هذا الإشكال، ويوجّه المعنى بأن الوعيد إنما هو للمصلين الذين يسهون عن صلاتهم أنهم يتكاسلون عنها، أو يؤدونها من دون اهتمام أو خشوع، أي أن السياق هو الحاكم على الألفاظ، والمبين لمجملها والمخصص لعمومها والمقيد لمطلقها"³.

وقال ابن كثير: " أنه ليس المراد تركها بالكلية، وإنما السهو عنها تارة، بتأخيرها عن وقتها، وتارةً بعدم حضور القلب فيها، فعند ذلك يقال لهم ساهون عنها"⁴.

ومن ثم فإن سياق الآية هو قيد الدم، ومنع توهم إطلاقه على كل مصلٍ ووجّه المعنى نحو تقصير خاص للفعل المشروع ذاته.

- قال تعالى: **(يا أيها الذين آمنوا ولا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون)**⁵.

يتوهم البعض من ظاهر الآية في قوله: (لا تقربوا الصلاة) إن في الآية نهياً عاماً عن الصلاة، لولا أن السياق المكمل يوضح المقصود (وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون)، أي أن النهي عن قربان الصلاة في حالة السكر حين كان الخمر لم يحرم بعد حتى يصحو الإنسان، ويدرك كلامه، وبالتالي فالسياق هو الذي يعني رفع الإيهام، وبيان سبب النهي، وهو هنا السكر، وعيّن الشرط الزمني لزوال النهي (حتى تعلموا ما تقولون)، وهنا قال الزمخشري: " لولا قوله وأنتم سكارى لكان النهي عن الصلاة نفسها ولكن السياق قيّده، وهو حاكم على الظاهري"⁶.

1 - الماعون، 54

2 - تفسير ابن كثير: 496 / 8

3 - الاتقان في علوم القرآن، 117/2

4 - ينظر: تفسير ابن كثير، 496 / 8

5 - النساء، 43

6 - الكشاف، 521 / 1.

وقال الرازي: "هذه الآية من الأدلة على أهمية السياق، فإذا تقدم (لا تقربوا الصلاة) لا يعني النهي عنها مطلقاً، بل في حال مخصوص، وهو السكر"¹. ويمكن القول من خلال الأمثلة السابقة أن سياق الآية لا غنى عنه في التفسير، فهو يضبط دلالة اللفظ، ويفسر المجمل، ويقيد المطلق، وهو من أصول قواعد فهم النص القرآني عند المفسرين والأصوليين.

ومثال ذلك ما ورد في تفسير الآية: (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين)².

معنى اللفظ " الغليظ، والمراد هنا : غليظ الكلام، لقوله بعد ذلك (غليظ القلب)، أي لو كنت سيء الكلام، قاسي القلب عليهم لانفضوا عنك وتركوك، ولكن الله جمعهم عليك، والآن جانبك لهم تأليفاً لقلوبهم"³.

ف نجد أنه قصر دلالة كلمة (اللفظ) على غلظ الكلام، بالرغم أن معناها : الغليظ⁴، فتشمل غلظ اللسان، وغلظ القلب في قوله (غليظ القلب) فقصر دلالة (فظاً) على غلظ اللسان، لئلا يكون في الكلام تكراراً لا فائدة منه.

المطلب الثاني: سياق السورة

إن لكل سورة في القرآن الكريم محور عام، وغرض رئيس أو أكثر يُستخلص من سياقها العام، وتكون المقاطع ذات الأغراض الخاصة في السورة خادمة لهذا المحور العام والغرض الرئيس "فتتناسق أوضاعها وتتألف عناصرها ويأخذ بعضها بحجز بعض حتى أنها لتتنظم منها وحدة محكمة لا انفصام لها ذات محور عام"⁵.

و يقول الدكتور محمد عبد الله دراز - رحمه الله- " اعمد إلى سورة من تلك السور التي تتناول أكثر من معنى واحد وما أكثرها في القرآن فهي جمهرته وتنقل بفصك معها مرحلة مرحلة، ثم أرجع البصر كرتين كيف بدأت؟ وكيف خُتمت؟ وكيف تقابلت أوضاعها، وتعادلت؟ وكيف تلاقت أركانها وتعانقت؟ وكيف ازدحمت مقدماتها بنتائجها؟ و وطأت أولها لأخراها، وأنا لك زعيم بأنك لن تجد البتة في نظام معانيها أو مبانيها ما تعرف به، أكانت هذه السورة قد نزلت في نجم واحد، أم في نجوم شتى، أنك لتقرأ السورة الطويلة المنجمة، يحسها الجاهل أضغاثاً من المعاني حُشيت حشياً، وأوزاعاً من المباني جُمعت عفواً، فإذا هي لو تدبرت دنيا متماسكة، قد بُنيت من المقاصد الكلية على أساس وأصول، وأقيم على كل أصل منها شُعْب وفصول، وامتد كل منها شعبة منها فروع تقصر وتطول، فلا تزال تنتقل بين أجزائها، كما تنتقل بين حجرات وأبنية في بنيان واحد قد وُضع رسمه مرة واحدة، لا تحس بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق، ولا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق، بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة، كما ترى بين أحوال الجنس الواحد لنهاية التضامن والالتحام، وكل ذلك بغير تكلف، ولا استعانةٍ بأمر من خارج المعاني أنفسها، وإنما هو حسن السياق، ولطف التمهيد في مطلع كل غرض، ومقطعه، وأثناءه، ويريك المنفصل متصلاً والمختلف مؤتلفاً"⁶.

هذا التناسب بين الآيات والمقاطع من مظاهر إعجاز هذا الكتاب العظيم، يقول القرطبي رحمه الله في مقدمة كتابه (الجامع لأحكام القرآن) في معرض تعداد وجوه الإعجاز القرآني، ومنها التناسب في جميع ما تضمنه ظاهراً وباطناً من غير اختلاف، قال تعالى: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كبيراً﴾ ومن أمثله هذا النوع من السياق:

1 - مفاتيح الغيب، 10/ 143.

2 - آل عمران، 159

3 ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، 2/ 148

4 (يُنظر: لسان العرب، مادة (فظظ).

5 (النبأ العظيم، 142

6 - ينظر: النبأ العظيم، 154 و155

- قال تعالى: ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة سباً ونقداً علمت الجنة وإنهم لمحضرون﴾¹

يقول الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله عند تفسيره لهذه الآية: "حيث ذكر الخلاف في معنى الإحضار، هل المراد به الإحضار للعذاب؟ أو الإحضار لمشاهدة الحساب؟ وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال إنهم لمحضرون العذاب، لأن سائر الآيات التي ذكر فيها الإحضار في هذه السورة، إنما عني به الإحضار في العذاب فكذلك في هذا الموضع"²

فاستدل رحمه الله على هذا المعنى من خلال سياق السورة، فقد ورد ذكر الإحضار في هذه السورة مرتين من غير هذا الموضع الأول، ﴿ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين﴾³ والثاني ﴿فكذبوه فاتهم لمحضرون﴾⁴، وكلاهما بمعنى الإحضار للعذاب فيكون هذا الموضع بمعناهما ومن الأمثلة أيضاً ما قاله الإمام ابن القيم رحمه الله في أثناء تفسيره سورة التحريم والأمثال التي فيها ثم في هذه الأمثال من الأسرار الوديعية ما يناسب سياق السورة فإنها سيقت في ذكر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم والتحذير من تظاهر تظاهرهن عليه وأنهن إن لم يطعن الله ورسوله ويردن الدار الآخرة لم ينفعهن اتصالهن برسول الله صلى الله عليه وسلم كما لم ينفع امرأة نوح ولوط اتصالهما بهما، ولهذا إنما ضرب في هذه السورة مثل الاتصال النكاح دون القرابة، قال يحيى بن سلام ضرب الله المثل في الأول يحذره عائشة، وحفصة، ثم ضرب لهم المثل الثاني يحرضهما على التمسك بالطاعة.

وفي ضرب المثل للمؤمنين بمريم أيضاً اعتبار آخر وهو أنها لم يضرها عند الله شيئاً قذف اعداء الله اليهود لها ونسبتهم إياها وابنها إلى ما برئهما الله عنه مع كونها الصديق الكبرى المصطفى على نساء العالمين فلا يضر الرجل الصالح قد حلف الجار والفساق فيه.

وفي هذا تسلية لعائشة أم المؤمنين إن كانت السورة نزلت بعد قصة الإفك، وتوطين نفسها على ما قال فيها الكاذبون إن كانت قبلها كما ذكر التمثيل بامرأة نوح ولوط تحذير لها ولحفصة مع مما اعتمدها في حق النبي صلى الله عليه وسلم فتضمنت هذه الأمثال التحذير لهن والتخويف والتحريض لهن على الطاعة والتوحيد والتسليية وتوطين النفس لمن أودي منهن وكذب عليه وأسرار التنزيل فوق هذا وأجل منه ولا سيما أسرار الأمثال التي لا يعقلها إلا العالمون⁵.

ورد في سورة يوسف عليه السلام ورد قوله تعالى: ﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه﴾⁶ فاستجاب له ربه، وصرف عنها كيدهن.

في بداية السورة يُذكر الحلم، ثم تأتي محطات الفتنة، والسجن والتأويل، فالسياق العام يرسم خطاً واضحاً في تنقلات يوسف عليه السلام ويظهر ان المحنة جزء من التمكين وهنا يقول سيد قطب السياق في السورة يرسم خطاً تصاعدياً في النضج والابتلاء والتمكين ويكشف بوضوح عن مقصد الصورة في بيان حكمه الله في تدبير الامور⁷.

كما أن تكرار ألفاظ مثل (ربي أحسن مثواي) وإن (ربي لطيف لما يشاء) يؤكد من خلال السياق الداخلي للسورة على محور الرضا والتسليم بقدر الله وإشار البقاع الى هذا الترابط بقوله: "كل ايه من في الصورة تخدم غرضاً بيانياً يربطها بما قبلها وبعدها وهذا من إجاز القرآن"⁸

وسوره الكهف من السور المكيه وتتميز بسياق سردي متماسك يجمع بين العبرة والاعتبار والتنبييت والإرشاد، ومواجهة الفتنة، وهي سورة تعالج أنواعاً من الفتن الكبرى وهي:

1_ فتنة الظن: قصة اصحاب الكهف

1 - سورة الصافات، 158

2 - القرطبي: جامع البيان، 19 / 646.

3 - الصافات، 54

4 - الصافات، 127

5 - ينظر: ابن القيم: إعلام الموقعين، 225، 228 / 1

6 - يوسف، 23

7 - في ظلال القرآن، 4 / 2032.

8 - نظم القرآن، 6/372.

2_ فتنة المال: قصة صاحب الجنتين

3_ فتنة العلم : قصة موسى مع الخضر

4_ فتنة السلطة : قصة ذي القرنين.

وقد جاءت السورة كلها في سياق الرد على المشركين الذين سألوا النبي - صلى الله عليه وسلم - عن الفتنة والروح ورجل طواف بإيعاز من اليهود كما ورد في اسباب النزول¹.

وقال الفراهي سياق سورة الكهف يدل على أنها بنيت لبث الطمأنينة في قلوب المؤمنين أمام فتن الزمان، ورد الشبهات التي يثيرها الماديون²، وسوره الكهف تبدأ بقوله: ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً﴾³.

وتنتهي بقوله تعالى: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى الي﴾⁴.

فالساق الهيكلية للسورة يجعلها تبدأ بتمجيد الكتاب، وتنتهي بتثبيت النبوة، وهما معاً بمثابة الإطار العقدي الذي تحاك داخله القصص والفتن الأربعة، وقد قال الرازي: "أفتحت السورة بالحمد، واختتمت بالأمر بالإخلاص، وبينهما بيان أحوال الأمم والفتن إشارة إلى أن الثبات على الحق لا يكون إلا بالعلم والعمل الصالح"⁵.

ويمكن أن نمثل لفتنة المال من خلال القصة، وتنتهي بقوله: ﴿هنالك الولاية لله الحق وهو خير ثواباً وخير عقاباً﴾⁶، إن السياق القصصي يوضح أن القصة ليست مجرد سرد لحال غني مغرور، وفقير زاهد، بل إن بنية القصة تخدم مقصد السورة في بيان مقال الغرور بالدنيا وخطورة نسيان المعاد ويمكن إبراز السمات السياقية من خلال تكرار الأفعال بصيغته الماضي جعلنا حسفناها فجرنا كان له ثمر مما يعطي طابعاً من الثبات والقدر المحتوم في تدبير الله ويقابل ذلك زهور صاحب الجنتين بفعل ﴿أكثر منك مالاً وأعز نفراً﴾⁷ فالربط بين الجنة والغرور نلاحظ كيف صورت الجنة كأنها سبب أو غفلة، فجاء في سياق الجملة، ﴿ودخل جنته وهو ظالم لنفسه﴾⁸، مما يفهم منه أن الدخول لا يقتصر على الفعل الحسي بل هو موقف ذهني ونفسي، أي دخلها وهو في نفسه كبر وظلم، والسياق يوجه الحوار، وجاء الحوار بين الرجلين ليظهر التفاوت في الإيمان، فالمؤمن قال: ﴿أكفرت بالذي خلقك﴾، وهو ما يكشف ان السياق ليس مجرد حوار اجتماعي بل توجيه عقدي والسياق يبرز قيمه الغرور جاءت النهاية بسياق يقلب المشهد ﴿وأحيط بثمره﴾⁹، وهو تعبير يفيد الفجائية والشمول في الهلاك مما يصب في غرض تثبيت التوحيد والتزهيد بالدنيا، وقد قال ابو السعود : السياق يظهر أن الغرض بيان هوان الدنيا وزوالها وان الاعتماد عليها مؤذن الى الهلاك¹⁰.

وقال الطاهر بن عاشور : "سياق القصة في ترتيبها وتركيبها يدل على موعظة بالغة ضد الغرور بما في اليد، وتنبية على زوال الأسباب الظاهرة"¹¹.

وهكذا نجد أن سياق سورة الكهف تعتبر من أروع السياقات القرآنية التي تجمع بين الترابط الموضوعي والبناء البلاغي، فهي تعرض القصص بأسلوب متكامل، وتعالج الفتن الكبرى التي تعترض الإنسان، وتربط كل ذلك بتثبيت الإيمان، وبيان أهمية الوحي إن إدراك السياق في هذه

1 - ينظر الطبري جامع البيان 15 / 176

2 - دلائل النظام، 236

3 - الكهف، 1

4 - الكهف، 110

5 - التفسير الكبير،

6 - الكهف، 24

7 - الكهف، 34

8 - الكهف، 35

9 - الكهف، 42

10 - تفسير ابي السعود، 138/5

11 - التحرير والتنوير: 15 / 261

السورة يفتح آفاقاً تفسيرية جديدة لا تفهم بالاعتماد على مفردات معزولة، بل من خلال الربط بين الفكرة والهيكل العام للسورة.

المطلب الثالث: السياق الكلي

يوضح السياق الكلي المعنى المراد والمقصد من أسور القرآنية، فهو الإطار العام الذي تنتظم فيه الآيات موضوعاً ومقصدًا، وهو يتجاوز حدود الآية الواحدة أو السورة الواحدة إلى النظر في الرسالة الشاملة للنص، وتكمن أهميته في كونه يساعد على تفسير المعاني تفسيراً متماسكاً غير مجتزأ، ويحول دون الفهم المنعزل الذي يؤدي إلى التأويل الخاطيء، كما يعد السياق الكلي مرشداً لاكتشاف العلاقة بين الآيات في الموضوع، ويكشف عن وحدة الموضوع وتطوره، مما يعين على إدراك المعاني الدقيقة والمقاصد العليا للخطاب القرآني، ولتوضيح ذلك نمثل لبعض ما ورد في القرآن الكريم:

مثال: اللفظ (اليد) في القرآن الكريم: إن لفظت يد من الألفاظ القرآنية التي تفهم فهماً سليماً عند مراعاة السياق لكل القرآن، لأن ظاهرها قد يوهم التشبيه، لولا أن الآيات الأخرى تفسر معناها وتقوّم الفهم، ومما يرد من هذه الالفاظ في الآيات الآتية:

قال تعالى: ﴿يد الله فوق أيديهم﴾¹.

قال تعالى: ﴿خلقت بيدي﴾².

قال تعالى: ﴿بل يدها مبسوطتان﴾³.

لو تم تفسير هذه الآيات بمعزل عن السياق الكلي للقرآن قد يفهم منها إثبات الجارحة (اليد الحسية) لله تعالى، وهو ما يتعارض مع المحكمات الأخرى التي تنزه الله عن الجوارح والمماثلة، فالسياق العام للقرآن يؤكد تنزيه الله عن مشابهة خلقه، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾⁴، وقال تعالى ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾⁵، وقال أيضاً جل جلاله: ﴿هل تعلم له سمياً﴾⁶.

إن هذه الآيات ضمن السياق الكلي للقرآن تفهم على أنها تقرر قاعدة التنزيه، أي أن الله منزّه عن مشابهة خلقه، وعليه فإن اليد تفهم على وجه يليق بجلاله، أو يفوض معناها مع إثباتها بلا تشبيه ولا تجسيم كما قرر أهل السنة، ويمكن تطبيق السياق الكلي على معنى اليد بناء على هذا السياق الكلي، فقد فسر كثير من العلماء (اليد) في القرآن الكريم بأنها رمز القدرة والنعمة والعطاء، كما في قوله تعالى: ﴿بل يدها مبسوطتان﴾، أي عطاءه دائمٌ وواسعٌ، أو أنها صفة ثابتة له نسبتها، كما وردت من غير تشبيهه، ولا تعطيل كما هو منهج السلف فقد قال ابن كثير في تفسير ﴿خلقته بيدي﴾، أي بقدرتي وعنايتي، وليس المراد الجارحة كما في المخلوقين⁷.

وقال الزركشي: يجب رد المتشابه إلى المحكم، وهذا باب عظيم في التفسير يُعتمد فيه على السياق العام للقرآن⁸، وقال الشاطبي: القرآن كلُّ متكامل وتفهم جزئياته على ضوء كليته⁹.

ومن خلال ذلك تظهر أهمية السياق الكلي في المثال السابق، فلو اكتفى بظاهر اليد في بعض الآيات دون ربطها بالسياق الكلي الذي ينفي التشبيه لانتهى الفهم إلى خطأ عقدي، لكن ربط الآيات ببعضها يُظهر أن السياق الكلي للقرآن يوجه إلى تنبيهه مع الإثبات في إطار التوازن الذي يتميز به من هذه القرآن الكريم.

1 - الفتح: 10

2 - ص: 75.

3 - المائدة، 64

4 - الشورى: 11

5 - الإخلاص: 4

6 - مريم: 65

7 - تفسير ابن كثير: 7 / 112

8 - ينظر: البرهان في علوم القرآن، 2 / 178

9 - ينظر الموافقات، 3 / 375.

وبالتالي فإن السياق الكلي هو الضامن للفهم الصحيح للمعاني خاصة في الآيات المتشابهة، وإن إغفال هذا السياق قد يؤدي الى انحراف التصور أو العقيدة.

خاتمة

توصل البحث إلى النتائج الآتية:

- يعدُّ السياق أداة مركزية في التفسير، فهو وسيلة أساسية لفهم المعاني القرآنية توجيهاً وتفسيراً، ولا يمكن الاستغناء عنه في التفسير الرصين.
- لا يُفهم المعنى الدقيق لكثير من الألفاظ والتراكيب القرآنية بمعزل عن سياقها الخاص، إذ يتغير مدلولها، أو يضيق أو يتسع بحسب السياق الذي وردت فيه.
- إن تفسير الآية يجب ألا يقتصر على سياقها القريب فقط، بل ينبغي النظر إلى السياق العام في السورة، وسياقات الموضوع القرآني ككل، مما يعطي رؤية شاملة ودقيقة.
- يسهم السياق في حفظ وحدة الخطاب القرآني من خلال الحفاظ على وحدة الموضوع في السورة أو المقطع، ويمنع التجزئة في الفهم، مما يعزز القراءة الموضوعية للنص القرآني.

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم
- الألوسي، شهاب الدين السيد محمود: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1415هـ.
- أبو السعود: تفسير أبو السعود، دار الفكر، بيروت، 1986.
- أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف الشهير: البحر المحيط، الناشر: دار الفكر، بيروت، 2000.
- الرازي، فخر الدين، التفسير الكبير: التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1420هـ.
- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله البرهان: البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء التراث العربي، القاهرة، ط1، 1957م.
- الزرقاني، محمد عبد العظيم مناهل: العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، مصر، ط3، 1943.
- الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود عمر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط3، 2009.
- السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، ضبطه وصحه محمد هاشم منشورات ذي القربى، 1429 هـ.
- ابن عاشور: التحرير والتنوير، ابن عاشور محمد الطاهر التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، 1963.
- ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، در الفكر، دمشق، 1962
- الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل أي القرآن، تح: محود شاكر، دار المعارف، القاهرة.
- البقاعي، برهان الدين: نظم الدرر في تناسب السور، دار المعارف العثمانية، 1986.